مجلة الحكمة للدراسات والأبحاث المجلد 02 العدد 06 (10) 2022/12/30
ISSN print/ 2769-1926 ISSN online/ 2769-1934

قراءة في منزلة العقل في فكر الأمير عبد القادر
"ذكرى الغافل وتنبيه العاقل" أنموذجا

الأستاذ الدكتور شعيب مقنونيف*
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان–الجزائر
meg.chaib@gmail.com

تاريخ الاستلام :2022/10/14 تاريخ القبول: 2022/11/06

الملخص:

إنّ في كتاب " ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، تأكيد على أن الله جعل معجزات هذه الأمّة الإسلامية عقلية، وذلك لفرط ذكائهم، وكمال أفهامهم، وفضلهم على مَن قدمهم؛ إذ معجزاتهم حسّية لبلادتهم، وقلّة بصيرتهم، ولذلك فالأمير يحمد الله لقوله تعالى لرسوله: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للنّاس ما نزل إليهم﴾، وخصّه بالإعانة على التبليغ فلم يقدر أحد منهم على معارضته بعد تحدّيهم، وكانوا أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء.

ومقالي الموسوم " قراءة في منزلة العقل في فكر الأمير عبد القادر (ذكرى الغافل وتنبيه العاقل) أنموذجا"، هو محاولة للوقوف عند الإشادة بدور العقل في الدّين الإسلامي، من لدن الأمير، إذ يرى أن الله تعالى أسّس دينه وبناه على الاتّباع، وقَبوله بالعقل، فمن الدّين معقول وغير معقول، والإتّباع في جميعه واجب.

الكلمات المفتاحية: قراءة/ منزلة/ العقل/ فكر/ الأمير عبد القادر الجزائري.

* **المؤلف المرسل**: الأستاذ الدكتور شعيب مقنونيف، **الايميل**: meg.chaib@gmail.com

ISSN print/ 2769-1926 ISSN online/ 2769-1934

تمهيد:

غير خاف على أحد أن الأمير عبد القادر واحد من كبار رجال الدولة الجزائريين في التاريخ المعاصر، فهو مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ورائد مقاومتها ضد الاحتلال الفرنسي من 1832 حتى 1847. كما يعد أيضا من الشعراء وكبار رجال التصوف وعلماء الدّين **1** بكل ما تحمله الكلمة من معاني ودلالات.

وهو إلى ذلك داعية سلام ومحبّة بين مختلف الأجناس والديانات **2**، ممّا فتح له باب صداقات ومراسلات وإعجاب **3** كبار السياسيين والقادة في العالم. ولكن ما ميّز شخصية الأمير أصالة ثقافته وتفتحها ونضجه الفكري والسياسي والصوفي **4**، فجاءت آراؤه لصيقة بقضايا العقل والأخلاق.

أولا– المرجعية الدينية المكونة لشخصية الأمير

خير ما أستهل به حديثي في هذا الموضوع هو قول الأمير عبد القادر متحدّثا عن حقيقة شخصية المرء فيقول: << لا تسأل عن أصل الرجل ولكن اسأل عن حياته وأعماله وشجاعته وخصاله، عند ذاك تعرفه من هو>> (ستي جون، سيمون خديس، 2005، ص13)، وهو بذلك، في اعتقادنا، يلتقي مع سادتنا الصوفية في قولهم المأثور " من نطق عرفناه من حينه ومن سكت عرفناه من يومه ".

لذلك نعدّ مرحلة نشأة الأمير وتكوينه، المرجع الدّيني الأول حيث قضى هذه المرحلة في طلب العلم بداية في مسقط رأسه بالقيطنة، حيث تكفل والدُه الحاج محي الدّين بتعليمه القراءة والكتابة وتقوية ملكة الذكاء فيه، فما كان من الفتى إلاّ أن حفظ القرآن الكريم، << ليفسره فيما بعد بسهولة وهو في مرحلة المراهقة>> (كاتب، ياسين ، 1984، ص 06) . ثم في مدينتي آرزيو و وهران حيث تتلمذ على عدد من شيوخ المنطقة وأخذ عنهم مبادئ العلوم الشرعية واللغوية والتاريخ والشعر، فقرأ كتاب " الإتقان في علوم القرآن " للإمام عبد الرحمن جلال الدّين السيوطي، كما درس" رسائل إخوان الصفا"، ورسائل" أرسطوطاليس"، و" فيثاغورث" في المنطق، كما درس الفقه، وحفظ بعضا من صحيح البخاري ومسلم، وقام بتدريسهما، لاحقا، كما تلقى الألفية في النحو، والسنوسية، والعقائد النسفية في التوحيد فصقلت ملكاته الأدبية والفقهية والشعرية في سّن مبكرة من حياته (أحمد عفيف، الطالي ،1979 ، ص 45)، ويشهد على ذلك شعره المحمّل في ثناياه بوجدانيات الشاعر وثورته وخلاصة تجربته، إضافة إلى مشاركاته الحية بالقلم والسيف حيث الفروسية على أشدّها حين قال:

ومن عجب تهاب الأسد بطشي ويمنعني غزال عن مرادي

نحن قوم تذيبنا الأعين النحل على أننا نذيب الحديدا

لقد جمع الشاعر في شعره بين الثقافة الأصيلة والشجاعة والقوة، بين الفصاحة والبيان والنضال وصدق القول وقيم البطولة والرجولة والتسامح والبساطة، فضلا عن مواقفه الواعية من التصوف بألوانه وصوره التي استلهمها من القرآن الكريم والتراث العربي.

لقد تركز اهتمام والد الأمير الحاج محي الدّين على تربية وتكوين ابنه الأمير تربية وتكوينا شملا << التكوين الديني والأخلاقي والذهني والتدريب على الفروسية والصبر والتحمل >> (ستي جون، سيمون خديس، 2005، ص13). وبذلك اكتمل للأمير الشاب العلم الشرعي، والعلم العقلي، والرحلة والمشاهدة، والخبرة العسكرية في ميدان القتال. و تكاملت لديه، أيضا، مؤهلات جعلته كفؤًا لهذه المكانة، وقد وجّه خطابه الأول إلى كافة العروش قائلاً: <<... وقد قبلت بيعتهم (أي أهالي وهران وما حولها) وطاعتهم، كما أنّي قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه، مؤملاً أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين، ورفع النزاع والخصام بينهم، وتأمين السبل، ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطّهرة، وحماية البلاد من العدو، وإجراء الحق والعدل نحو القوي والضعيف، واعلموا أن غايتي القصوى اتحاد الملّة المحمدية، والقيام بالشعائر الأحمدية، وعلى الله الاتكال في ذلك كله>> (نفسه).

وفي عام 1823 زوّجه والده من لالّة " خيرة " وهي ابنة عم الأمير عبد القادر، وسافر عبد القادر مع أبيه إلى البقاع المقدسة عبر تونس، ثم انتقل بحرا إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة حيث زار المعالم التاريخية وتعرف إلى بعض علمائها وشيوخها وأعجب بالإصلاحات والمنجزات التي تحققت في عهد محمد علي باشا والي مصر. ثم أدّى فريضة الحّج، ومنها انتقل إلى بلاد الشام لتلقي العلم على يد شيوخ جامع الأمويين. ومن دمشق سافر إلى بغداد أين تعرف إلى معالمها التاريخية واحتّك بعلمائها، ووقف على ضريح الولي الصالح "عبد القادر الجيلاني" ، ليعود مرة ثانية إلى البقاع المقدّسة عبر دمشق ليحج. وبعدها رجع مع والده إلى الجزائر وبالضبط إلى القيطنة بسهل غريس في الغرب الجزائري (أحمد عفيف، الطالي ، 1979، ص 49).

وابتداء من 1831 إلى غاية 1847 تشهد حياة الأمير مرحلة ثانية حيث ميّزتها عن بقية المراحل الأخرى لما عرفته من حوادث جسام وإنجازات وظّف فيها قدراته العلمية وحنكته السياسية و

العسكرية فلم تشغله المقاومة، رغم الظرف العصيب، عن وضع ركائز ومعالم الدولة الحديثة لما رآه من تكامل بينهما.

فبعد سقوط وهران عام 1831 ،عمّت الفوضى و اضطربت الأحوال مما دفع بشيوخ وعلماء ناحية وهران إلى البحث عن شخصية يولونها أمرهم، فوقع الاختيار على الشيخ محي الدين والد عبد القادر، لما كان يتّسم به من ورع وشجاعة، فهو الذي قاد المقاومة الأولى ضد الفرنسيين سنة 1831، كما أبدى ابنه عبد القادر شجاعة وحنكة قتالية عند أسوار مدينة وهران منذ أول اشتباك له مع المحتلين، اعتذر الشيخ محي الدين لكبر سنّه، و بعد إلحاح من العلماء و شيوخ المنطقة رشّح ابنه عبد القادر قائلا: << ولدي عبد القادر شاب تقي، فطن صالح لفصل الخصوم ومداومة الركوب مع كونه نشأ في عبادة ربه، ولا تعتقدوا أنّي فديت به نفسي، لأنّه عضو منّي وما أكرهه لنفسي أكرهه له ...غير أني ارتكبت أخف الضررين حين تيّقنت الحق فيما قلتموه، مع تيقني أن قيامه به أشدّ من قيامي و أصلح ...فسخوت لكم به...>> (نفسه، ص 63). رحّب الجميع بهذا العرض، وفي 27 نوفمبر 1832 اجتمع زعماء القبائل والعلماء في سهل غريس قرب معسكر وعقدوا لعبد القادر البيعة الأولى تحت شجرة " الدردارة " وأُطلق عليه لقب ناصر الدّين، ثم تلتها البيعة العامّة في 4 فبراير 1833 (نفسه، ص 65).

في هذه الظروف تحمّل الأمير مسؤولية الجهاد والدفاع عن الرعيّة و ديار الإسلام وهو في عنفوان شبابه. وما يميّز هذه المرحلة، انتصاراته العسكرية و السياسية، التي جعلت العدو الفرنسي يتردّد في انتهاج سياسة توسعية أمام استماتة المقاومة في الغرب، والوسط، والشرق.

لقد أدرك الأمير عبد القادر منذ البداية أن المواجهة لن تتّم إلا بإحداث جيش نظامي مواظب تحت نفقة الدولة لهذا أصدر بلاغا إلى المواطنين باسمه يطلب فيه بضرورة تجنيد الأجناد وتنظيم العساكر في البلاد كافة. فاستجابت له قبائل المنطقة الغربية والجهة الوسطى، و التّف الجميع حوله بالطاعة. وكوّن منهم جيشا نظاميا سرعان ما تكيّف مع الظروف السائدة واستطاع أن يحرز عدّة انتصارات عسكرية أهمّها معركة المقطع التي أطاحت بالجنرال " تريزيل " و الحاكم العام " ديك دورليون " من منصبيهما.

أما سياسيا فقد افتّك من العدو الاعتراف به، والتعامل معه من موقع سيادة؛ يُستشف ذلك من معاهدتي " دي ميشال " 26 فبراير 1834، و " وادي التافنة " في 30 ماي 1837.

إلاّ أنّ تَغيّر موازين القوى، داخليا وإقليميا، أثّر سلبًا على مجريات مقاومة الأمير فلم يعد ينازل الفرنسيين فحسب بل انشغل أيضا بأولئك الّذين قصرت أنظارهم، فتوالت النكسات خاصة بعد أن انتهج الفرنسيون أسلوب الأرض المحروقة، كما هي مفهومة من عبارة الحاكم العام الماريشال" بيجو " : << لن تحرثوا الأرض، وإذا حرثتموها فلن تزرعوها، وإذا زرعتموها فلن تحصدوها.. >> (كاتب ياسين، 1984 ، ص 16) .

ثانيا– المرجعية الفكرية المكونة لشخصية الأمير

يشهد معاصرو الأمير، ومن جاء بعده، بأنه كان واحدا من الرجال الأكثر ثقافة في زمانه، ذلك أنه خلّف كتابات تكشف عن فكر ثري بمعارف النصوص الأدبية الكلاسيكية كما تكشف في الآن نفسه عن فكر متحرر سابق لزمنه **5** ، يحدوه إيمان فياض بالمستقبل وبالتطور، ألم يقل هو بنفسه: << احذروا أن تكونوا أحد النوعين من الرجال، العالم أو المؤمن بل كونوا الاثنين معاً >> ستي جون، سيمون خديس ، 2005، ص 7).

وفي الحقيقة فإننا ندعو اليوم إلى تقدير ذلك الثراء وذلك العمق الذي يشمله الإرث الذي تركه الأمير والمتمثل في تحاليله الثاقبة ومنطقه الدقيق وأخلاقه الرفيعة وتخيله وتصوره البارع الذي يستلهم منه فكره الشعري والروحي.

وعند تناول الأمير لأمهات المسائل الفلسفية المتعلقة بالإنسان فإنه يضعه في أعلى مرتبة الخلق، حيث يقول<< إن الله شرّف الإنسان إذ ميّزه بالروح والعقل >> (نفسه) ، لأن العقل << منبع العلم، وأساسه، ومطلعه ، والعلم يجري من العقل، مجرى الثمر من الشجر، والنور من الشمس، والرؤية من العين، وكبفى يخفى فضل العقل، وأعظم البهائم بدنا، وأشدّهم ضراوة، وأقواهم سطوة، إذا رأى صورة افنسان، هابه لشعوره بفضله عليه، واستيلائه، بسبب ما خص به من إدراك الحيل>> (عبد القادر الجزائري، 1966، ص 29) ، ويبقى التعلّم المصحوب بثقافة الجُهد هو الوسيلة الوحيدة على طريق الوصول إلى كمال الفرد. وهو بذلك يقف ضد الميول القدري عند عامة النّاس والذي يضع السعادة الكبرى في المتعة المادية. ويقارن بين هذه السعادة الكاذبة وبين السعادة الروحية الطاهرة التي يشعر بها العالِم عندما يكتشف الحل لمعضلة ما، يقول: << آه إن السلاطين وأبناء السلاطين بعيدون كل البعد عن تلك المتعة النفسية الشريفة>> (ستي جون، سيمون خديس ، 2005، ص 7).

و في الرسالة التي وجهّها إلى جمعية الدراسات الأسيوية المعروفة بعنوان "رسالة إلى الفرنسيين أو تذكير العاقل وتنبيه الغافل" يطلعنا الأمير على فهمه لموضوعات مثل: الحضارة، والكتابة، والمعرفة، وما إلى ذلك من المواضيع

وفي معرضه عن الفكر الإيجابي ينبّه الأمير إلى تكامل الإيمان بالعقل ويعدّ العلوم والتقنيات ليست منافية للدّين، وعلى الإنسان أن يتكيّف مع العصرنة من دون أن يفقد روحه، يقول في هذا الصدد: << إذا استطاع الإنسان أن يجد طريقه إلى روحه فإن سعادته ستكون يقدر علمه، وفي حالة العكس، فإن شقاءه سيكون بقدر جهله >> (نفسه، ص 8). هذه النظرة للحياة ببعدها الفلسفي هي التي أهلته لتأسيس دولته بمعيار عصري.

أَ لَمَ تكن حال البلاد، يوم تولي عبد القادر الإمارة، صعبة ومعقدة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي، إذ لم يكن له المال الكافي لإقامة دعائم الدولة إضافة، علاوة على المعارضين لإمارته، ولكنه لم يفقد الأمل إذ كان يدعو باستمرار إلى وحدة الصفوف وترك الخلافات الداخلية و نبذ الأغراض الشخصية...

كان يعدّ منصبه تكليفا لا تشريفا. وفي نداء له بمسجد معسكر خطب في الناس قائلا: << إذا كنت قد رضيت بالإمارة، فإنما ليكون لي حق السير في الطليعة و السير بكم في المعارك في سبيل الله ...الإمارة ليست هدفي فأنا مستعد لطاعة أيّ قائد آخر ترونه أجدر منّي وأقدر على قيادتكم شريطة أن يلتزم خدمة الدّين و تحرير الوطن>> (أحمد عفيف، الطالي ، 1979، ص 80) .

و نقرأ في البيان الذي بعث به إلى مختلف القبائل التي لم تبايعه بعد، وذلك وقت تولّيه الإمارة أقوالا منها: << بسم الله الرحمن الرحيم: والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده... إلى القبائل...هداكم الله وأرشدكم ووجّهكم إلى سواء السبيل وبعد ... إن قبائل كثيرة قد وافقت بالإجماع على تعييني، و انتخبتني لإدارة حكومة بلادنا و قد تعهدت أن تطيعني في السرّاء والضرّاء وفي الرخاء والشدّة وأن تقدّم حياتها وحياة أبنائها وأملاكها فداء للقضية المقدّسة ومن اجل ذلك تولينا هذه المسؤولية الصعبة على كره شديد آملين أن يكون ذلك وسيلة لتوحيد المسلمين ومنع الفُرقَة بينهم وتوفير الأمن العام إلى كل آهل البلاد، ووقْف كل الأعمال غير الشرعية...ولقبول هذه المسؤولية اشترطنا على أولئك الذين منحونا السلطة المطلقة الطاعة الدائمة في كل أعمالهم التزاما بنصوص كتاب الله وتعاليمه ..والأخذ بسنّة نبيّه في المساواة

بين القوي والضعيف، الغنيّ والفقير لذلك ندعوكم للمشاركة في هذا العهد والقد بيننا وبينكم...وجزاؤكم على الله إن هدفي هو الإصلاح إن ثقتي في الله ومنه أرجو التوفيق>> (نفسه، ص 86) .

إن وحدة الأمة جعلها الأمير هي الأساس لنهضة دولته واجتهد في تحقيق هذه الوحدة رغم عراقيل الاستعمار والصعوبات التي تلقاها من بعض رؤساء القبائل الذين لم يكن وعيهم السياسي في مستوى عظمة المهمّة وكانت طريقة الأمير في تحقيق الوحدة هي الاقتناع أولا والتذكير بمتطلبات الإيمان والجهاد، لقد كلفته حملات التوعية جهودًا كبيرة لأن أكثر القبائل كانت قد اعتادت حياة الاستقلال ولم تألف الخضوع لسلطة مركزية قوية. بفضل إيمانه القوي انضمت إليه قبائل كثيرة بدون أن يطلق رصاصة واحدة لإخضاعها بل كانت بلاغته وحجته كافيتين ليفهم الناس أهدافه في تحقيق الوحدة ومحاربة العدو، لكن عندما لا ينفع أسلوب التذكير والإقناع، يشهر سيفه ضدّ من يخرج عن صفوف المسلمين أو يساعد العدوّ لتفكيك المسلمين، وقد استصدر الأمير فتوى من العلماء تساعده في محاربة أعداء الدّين والوطن. وتلك لعمري سمة العظام الذين يخلّدهم التاريخ وتذكرهم الأيام و السنون.

ثالثا– بين فكرة الحقيقة و ماهية العقل أي تقاطعات ؟!

1– مسالك الحقيقة

لم يخطر ببال الأمير عبد القادر الجزائري أن ينكر أهمية التفكير العقلي لمجرد أنه يقف معارضا للمنطق الصوري الذي لا يمكن عدّه المنهج الوحيد الموصل إلى اليقين. فليس من شروط الاجتهاد هو مجرد معرفة فن هذا المنطق على حد قول الأمير، بل هناك أنواع أخرى من الأقيسة العقلية وقواعد أخرى للشريعة الإسلامية. فعلينا إذن تتبع خطوات هذا المنطق الجديد المؤَسس على الكتاب والسنة والذي يؤكد أهمية العقل في الفكر الإسلامي.

ففي كتاب " **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**"، تأكيد على أن الله جعل معجزات هذه الأمّة الإسلامية عقلية، وذلك لفرط ذكائهم، وكمال أفهامهم، وفضلهم على مَن قدمهم؛ إذ معجزاتهم حسّية لبلادتهم، وقلّة بصيرتهم، ولذلك فالأمير يحمد الله لقوله لرسوله: ﴿ وأنزلنا إليك الذّكر لتبيّن للنّاس ما نُزِّل إليهم ﴾ (من سورة النحل/ من الآية 44). وخصّه بالإعانة على التبليغ فلم يقدر أحد منهم << على

معارضته بعد تحديهم، وكانوا أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء >> (جلال الدين، السيوطي، 1966، ص 1).

وثمّة إشادة بدور العقل في الدّين الإسلامي، من قبل الأمير، إذ يرى أن الله تعالى أسّس دينه وبناه على الإتّباع، وقَبوله بالعقل، فمن الدّين معقول وغير معقول، والإتباع في جميعه واجب. و من أهل السنة من قال ذلك بلفظ آخر: إن الله لا يُعرف بالعقل ولا يعرف مع عدم العقل. ومعنى هذا أن الله تعالى هو الذي يعرف العبد ذاته، فيعرف الله بالله لا بغيره لقوله تقدّست أسماؤه ﴿ إنّكَ لا تهدي مَنَ أَحببتَ ولَكِنَّ اللهَ يَهدي مَنْ يشاءُ﴾ (من سورة القصص/ من الآية 56)، ولم يقل .. ولكن العقل، ولقوله تبارك وتعالى، أيضا: ﴿ والله يهدي مَنْ يَشَاءُ إلى صراطٍ مُستقيمٍ ﴾. (من سورة البقرة / من الآية 212) . والآيات في هذا المعنى كثيرة، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: << والله لولا الله ما اهتدينا، ولا تصدقنا، ولا صلينا >>

فهذه الدلائل دلّت أن الله تعالى هو المعرف. إلا أنّه إنما يعرف العبد نفسه مع وجود العقل، لأن العقل هو سبب الإدراك والتمييز، لا مع عدمه، لأن الله تعالى قال: ﴿إنّ في ذلك لَآيةً لِقَوْم يَعْقِلُونَ ﴾ (من سورة النحل/ من الآية 67)، وقال سبحانه، أيضا، ﴿ إنّ في ذلكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ (من سورة ق/ من الآية 37)، وقال جل جلاله، كذلك، مخبرا عن أصحاب النار، ﴿ وقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (من سورة الملك / الآية 10).

وانطلاقا مما سبق ذكره، فإن فكرة الحقيقة ليست وقفاً على جماعة معينة أو فرد محدد؛ إنما هي ثمرة جهد البشر بمعزل عن اعتقاداتهم وانتماءاتهم العرقية. فالعالِم لا يهمُّه ما إذا كان الحق صادراً عمَّن حَسُن الاعتقادُ بهم أم لا؛ ذلك أن الحق يُعرَف بالدليل لا بالتقليد. وفي ضوء هذه الفكرة يقسّم الأمير عبد القادر الناس إلى قسمين: << قسم عالِم مُسعِد لنفسه ومُسعِد لغيره، وهو الذي عرف الحقَّ بالدليل لا بالتقليد ودعا الناس إلى معرفة الحق بالدليل، لا بأن يقلدوه؛ وقسم مُهلِك لنفسه ومُهلِك لغيره، وهو الذي قلَّد آباءه وأجداده فيما يعتقدون ويستحسنون، وترك النظر بعقله، ودعا الناس لتقليده>> (عبد القادر الجزائري، 1966، ص 14)، بله إن الأمير يرى أن<< بهيمة تُقاد أفضل من مقلِّد ينقاد >> (نفسه).

والمتأمل في هذه الحملة ضدّ المقلِّدين من قبل عالِم ومجتهد عاش فترة من أهم سماتها التقليد الأعمى والجمود، إنما يدل على قيمته وأسبقيته في تأسيس النزعة العقلية في مواجهة عصره، وهو القائل: << إن

أقوال العلماء والمتديّنين متضادة متخالفة في الأكثر، واختيار واحد منها، وإتباعه بلا دليل، باطل لأنه ترجيح بلا مرجح>> (نفسه) .

والأصل، إذن في امتلاك الحق هو العقل الذي لا يرضى بأي مظهر من مظاهره إلا بالدليل العقلي. إذ ذاك فإن معيار الحقيقة، لدى الأمير هو العقل، لا سيما وأن لدى البشر استعداداً لإدراك الحقائق، فالعقل هو المرشد الأمين وهو الهادي إلى الحق، وهو المنقذ من الحيرة والضلال فهو أصل من أصول المعرفة فلا سبيل إليها بدونه، ورحم الله أبا العلاء المعري القائل:

إذا تفكرت فكرا لا يمازجه فساد عقل صحيح هان ما صعبا

ولو صفا العقل ألقى الثقل حامله عنه ولم ترَ في الهيجاء معتركا

هذا، وإذا نحن نظرنا إلى الأرض التي كتب الله للبشرية أن تحيا فيها حياتها الدنيا مع سائر الدواب والنبات والجماد فإننا نجدها دائمة التغير منذ أن فتقها الله سبحانه عن السماوات، ودلائل الإبداع الإلهي المستمر فيها تتجلى في بيئتها الحية وفي طبيعتها الجامدة وفي كل ما يحيط بها أو تحيط به من أفلاك هي في حركة دائبة لا تفتقر ولا تنقطع؛ وأدّق تفاصيل هذا الإبداع المستمر نلمسها في الإنسان ذاته: في خصائصه البيولوجية والفيسيولوجية وصفاته العقلية والنفسية وفي استعداده للتطور والارتقاء، وآية ذلك أن كل فرد عالَم قائم بذاته، فأنت لا تجد بينما يفوق خمسة مليارات من الأنفس، وهو عدد سكان المعمورة اليوم، فردا يشبه فردا آخر في جميع الجزئيات التي تتألف منها مكونات الإنسان، وهكذا الأمر منذ أن خلق الله تعالى الدنيا وإلى أن يقضي فيها بأمره. ومع ذلك، فإن هذا التغاير في الخصائص والصفات لا ينفي وحدة النوع البشري الذي خصّه الله **بالعقل وأودع فيه القدرة على الإدراك والتّفكير والتّخيّل والتّمييز**، فجعل بذلك بعضه مكمّلا لبعض ليدرك غاية سعيه ويقيم عيشه على خير نظام. **والعقل أمانة تحمّلها الإنسان دون غيره من الكائنات لحكمةٍ اقتضاها خالقُه، قال تعالى:** ﴿ إنا عرضنا الأمانَةَ على السماواتِ والأرضِ والجبالِ فأبيْنَ أن يحملْنَها وأشفقنَ منها وحملها الإنسانُ﴾ (من سورة الأحزاب / الآية 72) ، و قد ذهب بعض العلماء إلى أن المقصود بالأمانة في الآية الكريمة هو العقل (الراغب، الأصفهاني ، 1972 ، ص 22) . ومن ثم **فالعقل نزّاع إلى التمحيص** والمقارنة والاستنتاج، ومن دأبه تقليب النظر في طبيعة المرئيات والمحسوسات وتجديد أحكامه عليها بالتأمل فيها أو بإخضاعها للتجريب والاختبار والقياس.

ISSN print/ 2769-1926 ISSN online/ 2769-1934

2- في ماهية العقل

إن العقل عند الأمير عبد القادر هو جملة من الخواص التي يتمتع بها الإنسان؛ بل هو السّمة التي تميز الإنسان عن الحيوان من حيث " إن الإنسان حيوان عاقل"، على رأي أرسطو؛ كما أن له أفكاراً فطرية سابقة على التجربة، وهذا مذهب معظم العقليين في الفلسفة؛ كما أنه القدرة على التمييز بين الخير والشر، وهو معنى أخلاقي للعقل. وقد جعل الأمير عبد القادر العقل على أربع درجات هي:

أ/ الوصف الذي يفارق الإنسانُ فيه جمي. ع البهائم؛ وهو الذي استعد به الإنسان لقبول العلوم النظرية. وهو ما عرف عند الفارابي **عقل بالقوة 6** .

ب/ والعلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميّز بجواز الجوازات واستحالة المستحيلات، كالعلم بأن الاثنين أكثر من واحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في آنٍ واحد؛ وتسمية هذه العلوم عقلاً ظاهرة، فلا تُنكَر وهي ما تعرف عند الفارابي **عقل بالفعل** (عبد الرحمن، مرحبا ، 1970 ، 438) .

ج/ والعلوم التي تُستفاد من التجارب بمجاري الأحوال؛ فإن من جرَّب الأمور وهذَّبَه تخالفُ الأحوال يقال إنه عاقل في العادة. وهذا نوع آخر من العلم يسمى عقلاً، وهو ما أقره الفارابي من قبل بـ " **العقل المستفاد**" (نفسه) .

د/ وأخيراً معرفة الإنسان عواقب الأمور. فالإنسان الذي يقمع الشهوة الداعية إلى تناول اللذة المضرة يقهرها؛ فإن حصلت هذه للإنسان سُمِّيَ عاقلاً (عبد القادر الجزائري، 1966، ص ص 29 ،30)، وهو مرادف **العقل الفعّال** عند الفارابي(عبد الرحمن مرحبا ، 1970 ، ص 440) .

والعقل، بما هو على هذا النحو، متفاوت بين الناس، من جهة، ومشترك بينهم، من جهة أخرى. أما سبب التفاوت، كما يرى الأمير، فهو بحسب خلقة الله تعالى،<< فعقول الأنبياء ليست كعقول سائر الناس، وعقل أبي علي بن سينا فائق على كثير من العقول>> (عبد القادر الجزائري، 1966 ، ص 31)

و**ختاما** يمكننا القول أن الأمير عبد القادر من خلال كتابه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل له تقاطعات عدّة مع كبار فلاسفة الإسلام و عباقرة أوروبا المسيحية؛ فهو يتقاطع مع ابن رشد في النزعة العقلية، ومع عبد الرحمن بن خلدون في النزعة الاجتماعية، ومع ديكارت في الدفاع عن العقل والإشادة به، ومع بيكون في نبذ الأوهام، والتقليد واحد منها.

ISSN print/ 2769-1926 ISSN online/ 2769-1934

و**بكلمة** فكتاب " ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" يستدعي منا في الجزائر والعالم الإسلامي قراءات متجدّدة وجديدة ومتعدّدة لا لشيء إلا لروح التجديد التي ميّزته وجعلته يساير روح العصر.

In **conclusion**, it can be said that Emir Abdelkader, through his book ""Diqra Al Aaqil Wa Tanbih Al Ghafil""Remembrance Of The Wise And Warning Of The Inattentive", has many crossovers with the great philosophers of Islam and the geniuses of Christian Europe. It intersects with Ibn Rushd in the rational tendency, with Abd al-Rahman Ibn Khaldun in the social tendency, with Descartes in the defense and praise of the mind, and with Bacon in the rejection of illusions, and imitation is one of them.

In a word, the "Diqra Al Aaqil Wa Tanbih Al Ghafil""Remembrance Of The Wise And Warning Of The Inattentive" calls for renewed, new and multiple readings from us, in Algeria and in the Islamic world, just the spirit of renewal that distinguished it and kept it in tune with the spirit of the times.

الإحالات:

1/إن الحديث عن الأمير عبد القادر وتاريخه أمر مدهش وصعب في الوقت نفسه، ذلك أنه إلى اليوم وبعد مضي أكثر من ستين سنة على استقلال الجزائر لم نجد من قال الكلمة الفصل في تاريخ هذا الرجل العظيم عظمة هذا البلد، فقد يجمع الجزائريون على أن الأمير هو مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، القائد الفذّ العبقري، والخطيب الملهم، الذي جمع بين السيف والقلم، أوّل من أثار الضمير الشعبي الجزائري، وبذر بذور الثورة ضد الاحتلال الفرنسي، عالم الأمراء وأمير علماء الشام. ولعل مرد ذلك كله إلى البيئة الاجتماعية بمختلف مستوياتها حيث أهلته لذلك؛ ومنذ وصوله دمشق، قادما من اسطنبول تبوأ فيها مكانة تليق به بوصفه سياسيا وعالما دينيا وأديبا وشاعرا.

و كانت شهرته قد سبقته إلى دمشق، فأخذ مكانته بين العلماء والوجهاء، حيث شارك بصورة بارزة في الحياة السياسية والعلمية. فقام بالتدريس في الجامع الأموي، حيث تولى تدريس الفقه والحديث، وغيرهما، واستمر على ذلك إلى وفاته، فكان يدّرس كتاب " الإتقان في علوم القرآن" للسيوطي بالمدرسة الجقمقية، الواقعة شمال الجامع الأموي بدمشق، كما أقرأ كتاب " الشفا بتعريف حقوق المصطفى" للقاضي

عيّاض المالكي، و" الرسالة " لابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي، ودرّس الصحيحين في دار الحديث الأشرفية لمرّات عديدة، فضلا عن المجالس العلمية التي كان يعقدها في داره بدمشق.

لقد عبر الأمير عبد القادر بصدق عن موقف الشعب الجزائري الرافض للهيمنة الأجنبية، كما استجاب لتطلعاته في إنشاء دولة حديثة في إطار قيمه العربية ومبادئه الإسلامية، فكان بحق ابن بيئته ونتاج ثقافته الأصيلة ولسان عصره.

2/ معلوم أنه بعد أعوام من استقراره بدمشق حدثت فتنة في الشام عام 1860 واندلعت أحداث طائفية دامية، وقام الأمير بدور رجل الإطفاء بجدارة، فقد فتح بيوته للاجئين إليه من المسيحيين في دمشق كخطوة رمزية وعملية على احتضانهم. حيث << أنقذ ستة عشر ألف نسمة من المسيحيين>> (ميخائيل مشاقة، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، تحرّى نصوصها ووضع مقدمتها وفهارسها أسد رستم وصبحي أبو شقرا، بيروت 1985، ط 2، ص 19).

وهي مأثرة لا تزال تذكر له إلى اليوم إلى جانب كفاحه ضد الاحتلال الغاشم في الجزائر. حيث كانت محل إعجاب الكثيرين وشهدت له القوى الكبرى وبعثت له برسائل شكر مصحوبة بهدايا وأوسمة، فمنحته روسيا وسام الصليب الأكبر للنسر الأبيض وفرنسا وسام فرقة الشرف من الدرجة الأولى، وبروسيا بالعديد من الهدايا وإنكلترا ببندقية مرصعة بالذهب، وأهدته أمريكا مسدسين مرصعين بالذهب وإيطاليا الشريطة الكبرى. بعد عامين من هذا العمل أرسل الأب أنطوان أوغست بافي أسقف الجزائر رسالة ثناء للأمير جزاء إنقاذه للمسيحيين بدمشق فأجابه: << والذي فعلناه من الخير مع المسيحيين جزاء لازم علينا بمقتضى الشريعة المحمدية وحقوق الإنسانية إذ الخلق كلهم عيال الله تعالى وأحبهم إليه تعالى أنفعهم لعياله وجميع الشرائع التي جاء بها الأنبياء من آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم تدور على أصلين ، تعظيم أمر الله تعالى، والشفقة على مخلوقاته >>.

3/ من ذلك ما كان للأمير من جاه وحظوة لدى الباب العالي وبالضبط عند السلطان العثماني "عبد الحميد"، الذي لجأ إليه " فرديناند دو ليسبس" من أجل إقناع العثمانيين بأهمية مشروع قناة السويس، زيادة على ذلك زياراته المتعددة إلى الأستانة ومصر وباريس، وحصوله على الأوسمة والمنح. كما هو الشأن مع " نابليون الثالث " الذي رصد له ميزانية سنوية تُصرَف له ولأتباعه. كان واحداً من المدعوين لحضور حفل افتتاح قناة السويس عام 1869، وقد تردد اسمه في تقارير القناصل الأجانب بصفته صديقاً لفرنسا وشخصية

عربية /إسلامية مرموقة.(ينظر: وجيه كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، بيروت 1982، ص 143).

4/ ألم يجتمع به كبار الشيوخ في دمشق ليحلّ لهم بعض ما أشكل عليهم من عبارات كبار فلاسفة التصوف، حيث كان الأمير يحاول دائما أن يوجهها بما يتّفق مع الشريعة، ويزيل اللبس الواقع بسببها. (ينظر: عبد القادر المحمودي، عناية الأمير عبد القادر بعلوم الحديث، منشورات الهدى، د.ط، د.ت، 2004، ص 49).

5/ و من تلك المصنفات:

أولا– كتاب" حسام الدين لقطع شبه المرتدين": حشد فيه الأدّلة المانعة من موالاة الكفار أو الإدلاء إليهم بأي معونة، واستند إلى فتاوى الفقهاء، وبخاصة المالكية، وذلك ليرد على بعض الشيوخ الذين استأجرتهم فرنسا ليروجوا بين الناس جواز العمل تحت إدارة حكم الفرنسيين، وعدم جواز الانضمام إلى دولة الأمير التي تقارعهم.(ينظر: عبد القادر المحمودي، عناية الأمير عبد القادر بعلوم الحديث، منشورات الهدى، ط 01، 2004، ص 50).

ثانيا– كتاب " المقراض الحاد لقطع لسان منتقص الإسلام بالباطل والإلحاد ": وقد ألّفه عندما أُسر في قلعة إمبواز بفرنسا حيث سجنته الحكومة الفرنسية الغادرة . وسبب التأليف أنّ بعض الحكّام الأوربيين أو بعض الضباط الأمراء، انتقص من دين الإسلام أمام الأمير، فهبّ الأمير ووضع ذلك الكتاب من حِفْظه يردّ فيه على ذلك المتنقِّص، والكتاب فيه حشد كبير للأحاديث النبوية مع ذكر رواتها، وكذلك فيه قدر كبير من فتاوى العلماء وأقوالهم مع ذكر كتبهم التي أوردوا فيها تلك الفتاوى (نفسه).

ثالثا– رسالة " ذكرى العاقل وتنبيه الغافل": كتبها وهو في بروسة بتركيا أثناء إقامته بها، وبطلب من الجمعية الآسيوية بباريس ، وكان تاريخ تأليفها يوم الاثنين 14رمضان من عام 1271 ه الموافق 1855م، و بين هذا في مفتتح الرسالة بقوله << بلغني أن علماء باريز وفقهم الحكيم العليم العزيز كتبوا اسمي في دفتر العلماء، ونظموني في سلك العظماء... ثم أشار علي بعض المحبين منهم بإرسال بعض الرسائل إليهم فكتبت هذه العجالة >> (الأمير عبد القادر: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تقديم وتحقيق د. عمار طالبي، دار القصبة للنشر: الجزائر، ط 2005، ص 5). وقد استهلها بالكلام على ضرورة إعمال النظر وترك التقليد، ثم بيّن فضل العلم والعلماء، وبيان انقسام العلم إلى محمود ومذموم، ثم أوضح فضل العلم

الشرعي، وتحدّث عن ضرورة إثبات النبوة التي هي منبع العلوم الشرعية ومصدر آخر من مصادر المعرفة التي تتجاوز طور العقل، كما يتجاوز العقل مجرد الحس، وتحدّث عن قصور المكذبين للأنبياء، وبرهن لهم أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو خاتم الأنبياء، ثم تحدّث عن الكتابة وحتمية التدوين و التصنيف، كما أثنى على العلماء الفرنسيين الذين يعنون عناية شديدة بالعلم العملي التطبيقي يقول في ذلك << وقد اعتنى علماء فرنسا، ومن حذا حذوهم باستعمال العقل العملي وتصريفه، فاستخرجوا الصنائع العجيبة، والفوائد الغريبة، فاقوا بها المتقدّمين، وأعجزوا المتأخرين، رقوا بها أعلى المراقي، وحصل لهم بها الذكر الباقي>> (نفسه، ص ص 6، 7).

رابعا– كتاب "وشاح الكتائب وزّي الجندي المحمدي الغالب" وهو كتيب يشتمل على الأحكام والقوانين الخاصة بجيش الأمير ودولته وفيه بعض القصائد الحماسية؛ خطّه كاتب الأمير" قَدور بن رويلة " بإشرافه. (حسين عمر حمادة، الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، دمشق 1986، ص 104).

خامسا– " مجموعة المراسلات الفقهية بين الأمير وعلماء عصره"، وفيها تتجلى بوضوح مدى اهتمام الأمير بجمع الفتاوى وآراء العلماء، وعدم اكتفائه بما عنده أو بين يديه(نفسه)

سادسا– " أجوبة الأمير عن أسئلة وجهها إليه علماء معاصرون له": والمطالع لها يدرك ، لا محالة، مدى سعة اطلاع الأمير، ومدى استيعابه للعلوم بحيث يستطيع حل مشكلها، وفتح مستغلقه (نفسه، ص 57).

سابعا– ديوانه الشعري: الموسوم " نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر"، من جمع وترتيب ابنه الأمير محمد باشا (نفسه، ص 62).

6/ وهو << قوة من قوى النّفس أو شيء ما ذاته معدّة أو مستعدّة لأن تنتزع ماهيات الموجودات كلها وصورها دون موادها >> (الفارابي نقلا عن: د.عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، مكتبة الفكر الجامعي، منشورات عويدات: بيروت، ط 01، 1970، ص 438).

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش أبي سعيد عثمان بن سعيد المصري، عن نافع بن عبد الرحمن بن أبي نُعَيْم المدني.

أولا – المصادر

جلال الدين السيوطي:

معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج 1، تحقيق علي محمد البجاوي، طبعة مصر، 1966.

عبد القادر الجزائري:

ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، بتحقيق و تقديم د. ممدوح حقي، دار بيروت للطباعة والنشر: بيروت 1966.

ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تقديم وتحقيق د.عمار طالبي، دار القصبة للنشر: الجزائر، ط 2005.

الراغب الأصفهاني(الحسين بن محمد):

مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم مرعشلي، دار الكاتب اللبناني: بيروت، 1972.

ثانيا– المراجع العربية والمترجمة

أحمد عفيف الطالي (د):

عظماء التاريخ: قطوف من سير الزعماء، دار القلم، بيروت، ط 01، 1979.

حسين عمر حمادة:

الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، دمشق، 1986.

عبد القادر المحمودي:

عناية الأمير عبد القادر بعلوم الحديث، منشورات الهدى، د.ط، د.ت، 2004.

عبد الرحمن مرحبا(د):

من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، مكتبة الفكر الجامعي، منشورات عويدات: بيروت، ط 01، 1970

محمد جلال أبو الفتوح شرف(د):

جلال الدين السيوطي منهجه وآراؤه الكلامية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر: بيروت،1981.

ميخائيل مشاقة:

منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، تحرّى نصوصها ووضع مقدمتها وفهارسها أسد رستم وصبحي أبو شقرا، بيروت 1985.

وجيه كوثراني:

الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، بيروت 1982.

ISSN print/ 2769-1926 ISSN online/ 2769-1934

كاتب ياسين:

الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر، ترجمة محمد هنّاد، المؤسسة الوطنية للكتاب: الجزائر، 1984

ستي جون سيمون خديس:

"الأمير عبد القادر الجزائري رجل قدر ورسالة "، مجلة الفكر والثقافة، بيروت– طرابلس، عدد خاص، 2005.

List of sources and references:

The Holy Qur'an, narrated by Warsh Abi Saeed Othman bin Saeed Al-Masry, on the authority of Nafeh bin Abdul Rahman bin Abi Naim Al-Madani.

First - the sources

Abdelkader Algerian: Remembering the sane and alerting the inattentive, investigated and presented by d. Mamdouh Hakki, Beirut House for Printing and Publishing: Beirut 1966.

Al-Raghib Al-Isfahani (Al-Hussein bin Muhammad): Vocabulary of the Qur'an, investigated by Nadim Maraachli, The Lebanese Writer's House: Beirut, 1972.

Jalal Al-Din Al-Suyuti: The Contest of Peers in the Miracles of the Qur'an, Part 1, edited by Ali Muhammad Al-Bajawi, Egypt Edition, 1966.

Remembering the wise and alerting the inattentive, presented and investigated by Dr. Ammar Talbi, Dar Al-Qasaba Publishing House: Algeria, 2005 edition.

Second - Arabic and translated references

Abdel Qader Al-Mahmoudi: Emir Abdul Qadir's concern for the sciences of hadith, Al-Huda Publications, Dr. I, Dr. T, 2004.

Abdul Rahman Hello (D): From Greek Philosophy to Islamic Philosophy, University Thought Library, Oweidat Publications: Beirut, 01st Edition, 1970

Ahmed Afif Al-Tali (D): The Greats of History: Excerpts from the Biographies of the Leaders, Dar Al-Qalam, Beirut, 01st edition, 1979.

City John Simon Khadis: "Prince Abdel Qader Al-Jazaery, a man of destiny and a message", Journal of Thought and Culture, Beirut-Tripoli, special issue, 2005.

ISSN print/ 2769-1926 ISSN online/ 2769-1934

Hussein Omar Hamadeh: Freemasonry and Freemasons in the Arab World, Damascus, 1986.
Muhammad Jalal Aboul Fotouh, Honor (D): Jalal al-Din al-Suyuti, his approach and theological views, Dar al-Nahda al-Arabiyya for printing and publishing: Beirut, 1981.
Michael Machaca: Selections from the answer to the proposal of the loved ones, investigated its texts and put its introduction and indexes, Asad Rustam and Sobhi Abu Shaqra, Beirut 1985.
Wajih Kawtharani: Social and political trends in Mount Lebanon and the Arab Levant, Beirut 1982. Yassin writer: Prince Abdelkader and the independence of Algeria, translated by Mohamed Henad, National Book Foundation: Algeria, 1984

مجلة الحكمة للدراسات والأبحاث المجلد 02 العدد 06 (10) 2022/12/30
ISSN print/ 2769-1926 ISSN online/ 2769-1934

Reading in the status of the mind in the thought of the Emir Abdelkader "Diqra Al Aaqil Wa Tanbih Al Ghafil" "Remembrance Of The Wise And Warning Of The Inattentive"

Professor Dr. *Chaib MEGNOUNIF*
Abi Bakr Belkaid University, Tlemcen, Algeria
meg.chaib@gmail.com

Abstract:

In the book "Remembrance Of The Wise And Warning Of The Inattentive", there is a statement that God has made the miracles of this Islamic nation rational, because of their excessive intelligence, perfection of understanding and superiority over those who came before them.

As their miracles are sensual due to their heaviness and lack of insight, and therefore the Emir praises God for what the Most High said to His Messenger: {And We sent down the Remembrance to you so that you could clarify to the people what was revealed to them}, and He distinguished it for helping to convey it, so that none of them could oppose it after challenging them, and they were the most eloquent of the eloquent.

My article entitled " Reading in the status of the mind in the thought of the Emir Abdelkader "Diqra Al Aaqil Wa Tanbih Al Ghafil" "Remembrance Of The Wise And Warning Of The Inattentive" as a Model" is an attempt to praise the role of reason in the Islamic religion of the Emir, as he sees that God Almighty founded and built his religion on following and accepting reason. Religion is reasonable and unreasonable, and following in all of this is obligatory.

Keywords: reading / status / mind / thought / Emir Abdelkader